النقاد ، قد أتيحت لها فرصة الانصاف الذي لم يستطعه ، وذلك من خلال ما قد يسلط عليها من أضواء نقدية في المستقبل ، الخ ... » ؛ وكأن الامر متوقف على « فرصة انصاف » أو عدمها بكل هذه البساطة من الثنائية الاخلاقية في طرح المسألة النقدية العربية عامة ، وحول روايتي « النقيض » خاصة . فنحن ، نعاني من أزمة نقدية مستفحلة لها جذورها الفكرية والاجتماعية يساراً ويميناً . اليمين يعمل على تجيير كل شيء لحسابه من خلال القمع الايديولوجي السائد ، واليسار يلهث ، لقوة الضربة اليمينية ، ولعوامل أخرى ، بالطبع ، ذاتية وموضوعية ، ولا ينجح ألا نسبياً في جمع أنفاسه : فهو إما أن يهرب الى الأمام ، حاملاً على كتفيه مسألة « المعاصرة » ، وإما أن يهرب الى الوراء حاملاً على كتفيه مسألة « التراث » .

النقد النقضي

أعود الآن الى هذه النقطة التي أشرت اليها بسرعة في فقرة سابقة ، نقطة النقد النقضي ، لأعاينها من ثلاث نواح : الناحية « المنهجية » ، وأجدني أضع « منهجية » بين قوسين تجاوزاً ، لأنه لا توجد منهجية علمية حد أدنى لدى الدكتور حسام الخطيب ، وسنرى هذا بالتفصيل ، ثم الناحية الشكلية لنقده ، وفي الأخير ، الناحية الداخلية لبنية هذا النقد ، حيث سأقصر هذه الناحية - دونما حاجة الى تطويل - على المستوى الاستنتاجي لديه .

الناحية « المنهجية »

يبدأ الدكتور حسام مقدمته « الشخصية » بهذه العبارة ذات الدلالات « المنهجية » التناقضية الهامة :

« بتهيب أكتب عن « النقيض » لأنني لم أحبب هذه الرواية ، وأخشى أن يقودني [عدم] الهوى* الى غمطها بعض مزاياها ، على أنني ، في الوقت نفسه ، أخشى أن تقودني هذه الخشية الى التكفير عن مشاعري السلبية بتصيد الحسنات وتكبيرها ، على الأقل ، من أجل تفادي تهمة التحامل » .

اذن ، « لم يحبب » الدكتور حسام الرواية ، ومع هذا ، فهو « يكتب عنها » ، ولكنه يكتب عنها « بتهيب » .

لدينا هنا ثلاث حركات تنقض الواحدة منها الأخرى ، وهي لا تغادر المستوى « الشخصي » الذي حدده الدكتور حسام كمنطلق « منهجي » لعمليته النقدية إلا عن طريق الشعور الذاتي (أو الذاتانية) نحو النص : « أخشى أن يقودني [عدم] الهوى الى غمطها بعض مزاياها » . الشعور الذاتي هنا واضح : الخشية من عدم الهوى ، والذي لا يلبث الناقد أن ينقضه « بخشية » اخرى : « أخشى أن تقودني هذه الخشية الى التفكير عن مشاعري السلبية بتصيد الحسنات » ، وينقض « تصيد الحسنات » (في التصيد قلة) بـ « تكبيرها » ، وكل هذا لأجل نقض « تهمة الدكتور حسام بعد سطور قليلة بشكل غير مباشر - بينما صاحب النص ، (يعني أنا) ، وأقولها بكل صراحة اخلاصاً مني للدكتور حسام خاصة وللنقد التقدمي عامة ، ان « تهمة التحامل » هي آخر ما سيخطر علي بالي ، وهمي الوحيد ، مثلما أنا فاعل الآن ، هو الرد الموضوعي العلمي النزيه حيث به تنتفي كل التهم في سبيل مصلحة نقدنا وأدبنا التقدميين فقط .

أعود فأقول إن في تفسير الدكتور حسام « لعدم حبه » « للنقيض » يتضح ويعمق ، أكثر فأكثر ، البعد المشاعري « لمنهجيته » في مستوييه الواعي واللاواعي ، وليس هذا فقط ، بل ويبدد فيها الحد الأدنى العلمي بعد أن تتحول الى أحكام نقدية مطلقة ، وفي الوقت نفسه،متناقضة لتناقض مستويي الشعور السابقين طبعاً .

يقول الدكتور حسام : « ان هذه الرواية خلطت الدر بالآجر ، وهي مشروع لعمل جليل وجاد وخطير ، اجتمعت له عناصر ممتازة من سلامة التفكير ونفاذ النظرة وصدق التجربة ، ولكنه لم يستطع أن يكون « تركيباً » مصقولاً جذاباً ، لأنه ربما كتب تحت تأثير جو معين » .

طريقة النقد النقضي - على مستوى الاحكام التقييمية - واضحة هنا : « الآجر » ينقض « الدر » وعدم الاستطاعة بأن يكون العمل « تركيباً مصقولاً جذاباً » ينقض العمل كمشروع « جليل وجاد

---

* في النص الأصلي نقرأ : « وأخشى أن يقودني الهوى الى غمطها بعض مزاياها » ، والهوى في طبيعته لا « يغمط » بل على العكس « يغبط » ، ولهذا اضفت كلمة (عدم) الهوى .